نظرات

في بنية علم الأخلاق

بقلم

دكتور

محمد يسري جعفر

المدرس بقسم العقيدة والفلسفة بالكلية

المقدمة

ينبنى علم الأخلاق على أقوال الفلاسفة والحكماء وعظات المرسلين من أجل ذلك نراه مليئاً بالآراء المتناقضة، لأن موضوعه السلوك الفردى، وهو مختلف من فرد إلى آخر، ومن بيئة إلى أخرى.

فالسلوك الإنسانى مثير للتساؤل حتى قبل خلق الإنسان حينما قال الله لملائكته «إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعملون»(١).

وشاءت إرادة الله تعالى أن يكون الإنسان سيد هذه الأرض على الرغم من أنه محل للغرائز ومحاط بمثيرات لغرائزه.

وقد اهتم الفلاسفة منذ أقدم العصور بتوجيه هذا السلوك نحو الأفضل والخير والواجب اعتماداً على تأملاتهم المحدودة، كما جاء رسل الله صلوات الله عليهم وتسليماته للأخذ بيد الخلق إلى طريق الحق، ودعوتهم إلى الفضائل الخلقية، وعلى مر التاريخ الإنسانى تكونت لدى الفلاسفة والمدارس الأخلاقية معرفة بالأخلاق فصار علماً نظرياً، ودعوة عملية إلى أن تميز فأخذ مكانه بين العلوم الإنسانية، وتطور بتطور المعرفة، وغذيت مناهجه وموضوعاته بأقوال الفلاسفة وبالنصوص الدينية.

وقد رأينا مشاركة منا فى العمل العلمى داخل كلية أصول الدين أن نتقدم بهذا البحث وهو عبارة عن نافذة نطل من خلالها على علم الأخلاق عبر العصور المختلفة حتى عصرنا الحاضر الذى هو فى أمس الحاجة إلى

---

(١) سورة البقرة آية ٣٠

معاودة الدعوة إلى الأخلاق العملية لا إلى الأخلاق النظرية فحسب ، لأن الأخلاق النظرية صارت فى حياتنا المعاصرة رهينة الكتب والمحاضرات الأكاديمية والعظات والخطب فى المساجد والنوادى العامة فى المناسبات.

ونرجو أن يكون هذا البحث دعوة للقراء ولنا أولا كى ما نختص بالأخلاق من جانبها النظرى المدرسى إلى شطرها العملى التربوى حيث إن الأخلاق العملية هى أعظم أثراً ، لأنها هى الغاية والهدف الأسمى من علم الأخلاق ، فعلى الرغم من تعدد المجتمعات واختلاف النظرة للقياس الخلق من بيئة لأخرى إلا أن علماء الأخلاق دائماً ما يهدفون إلى سعادة الإنسان والمجتمع .

« تعريف الأخلاق »

١ — تعرض أهل اللغة لبيان معنى الخلق فقالوا « الخلق من خلقت الشيء — أى ملسته ومنه صخرة خلقاء للملساء أى « المستقيمة والخالية من النتوء » .

وفى لسان العرب : « تقول للذى ألف شيئا صار ذلك له خلقا أى مرن عليه ومن ذلك الخلق الحسن ، وإن خلق الإنسان هو ما قدر عليه ورتب عليه ، فكأنه استقر وزال عنه الشك .

ويقال عند الحديث عن السجية وذلك أن خلق الإنسان أمر قد سكن إليه ، واستقر عليه .

٢ — يقول ابن مسكويه : « الخلق حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية[1] .

(١) السعادة القصوى ـ د . طه عبد السلام خضير ـ ص ٩٤

٣ — ويقول الغزالى « الخلق هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية ، فان كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقا حسنا ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة ، سميت الهيئة التى هى المصدر خلقا سيئاً[1] .

٤ — ويقول استيوارت مل : « الخلق إرادة كاملة الصياغة[2] .

٥ — ويقول : ول ديورانت : الأخـــلاق فى الاصلاح اللغوى والتاريخى مستمدة من التقاليد التى تعد جوهرية لسلامة الجماعة وحفظها وهى واجبات نطلبها من جيراننا .

٦ — ويمكننا أن نقول بعد هذه التعريفات : إن الأخلاق علم يبحث فى أعمال الإنسان وتصرفاته ، من حيث إنها خير أو شر ، من أجل ذلك فإننا لا نتفق مع الغزالى فيما ذهب إليه من أن الخلق هيئة فى النفس راسخة تصدر عنها الأفعال من غير فكر ولا روية لأن تعريف الخلق بهذه الكيفية يجعلها ثابتة لا تتغير وهـذا بخلاف الحقيقة لأن الأفعال الإنسانية قابله للتغير من سيء إلى حسن ومن حسن إلى أحسن والغزالى نفسه من القائلين بقبول تغير الأخلاق بل إن أخلاق بعض الحيوانات قابلة للتغير وكذلك مما يؤخذ على هذا التعريف أنه لا قيمة حينئذ من مدح الناس لصاحب الخلق الفاضل ووصفه بالحسن ومن ذم الناس لصاحب الخلـــق السيء

(١) مناهج البحث الخلقى فى الفكر الإسلامى — د. أحمد عبد الحميد الشاعر — ص ٢٨٦ دار الطباعة المحمدية .

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة — يوسف كرم — ص ٣٤٨ ، ٣٤٩

ووصفه بالقبح كما أنه لا قيمة للثواب والعقاب فى الآخرة إذا كانت حالة راسخة تصدر عنها الأفعال من غير فكر ولا روية لكننا مع هذه المآخذ نقول ربما قصد الغزالى صدور الأفعال من غير فكر ولا روية بعد التعود وتدريب النفس عليها من خلال الامتثال للأمر الإلهى أو الخلقى العام أو تبلد الحس وعدم الالتزام للأوامر الأخلاقية ومهما يكن من أمر فإن هذه التعريفات لا تتعدى أن تكون اجتهادات شخصية لا أن تدل بدلونا فيها فنقول إن الخلق سلوك للكائن الحى يتوجه نحو الخير والشر من خلال الدوافع والمثيرات .

١ — موضوع علم الأخلاق

تعد تصرفات الإنسان وأعماله هى موضوع علم الأخلاق لكن هل كل أفعال الإنسان الاضطرارية والاختيارية وغيرها من الأفعال تعد موضوعاً لعلم الأخلاق أم لا ؟

والإجابة على هذا السؤال تقتضى منا أن نوضح أنواع الأعمال الصادرة من الإنسان كما قسمها علماء الأخلاق :

١ — أعمال آلية : تقوم بها الأجهزة الداخلية لجسم الإنسان كما ولغيره من الحيوانات الأخرى كأعمال الجهاز التنفسى ، والجهاز الهضمى والجهاز الدموى وغيرهم ، فإن هذه الأعمال لا يمكن أن يتصرف فيها أو يحكم عليها فليست له عليها إرادة بل هى تعمل معه فى اليقظة وفى النوم سواء أرادها أو لم يردها .

٢ — أعمال عكسية : تصدر عن الإنسان بدون تصرف منه أو تدبير أو سلطان له عليها حيث تصدر منه عند مؤثر خارجى ، لا حيلة له معه فحينما يوخز الجسم بإبرة مثلا أو يفاجأ بشدة ضوء ، أو اقتراب شىء

غريب من عينيه أو ظهور شبح مخيف لم يعهده سابقاً ، فإنه فى كل هذه الحالات نجده يفزع ويهرع ويصرخ وتصدر عنه أفعال بدون إرادة منه أو وعى وتفكير ، وقد يأتى بأعمال مزعجة ، وتصرفات شاذة مفسدة .

٣ — أعمال يكره عليها الإنسان فيأتيها خوفاً من تهديد بالقتل أو بما يكرهه فهى تشبه العمل الإرادى فى صورتها ومظهرها وفى نتائجها ، ولكن تختلف عنه فى المؤثر فيها أو الدافع .

٤ — أعمال مشتبهة : وهى تقع من الإنسان بصورة الأعمال الإرادية ولكنها تقع لا عن وعى ولا تفكير كالأعمال التى تصدر عند رؤية عدو أو عند سماع ألفاظ نابية تسىء إليه أو إلى عرضه أو إلى وطنه أو دينه فيثور ويأتى بأعمال انتقامية أو غيرها .

٥ — أعمال إرادية : وهى الأعمال التى يسبقها عزم وتصميم ومشيئة حرة ونية دافعة وإصرار على فعلها ولغاية مقصودة تتحقق له بها مصلحة ذاتية كالأعمال التى يأتيها الإنسان بغية رضا الله والناس كإقامة بيوت الله وللعلم وللاستشفاء ولإيواء العجزة والمساكين ، وكالجهاد فى سبيل الله وسبيل الوطن والدفاع عن الضعفاء ، وطلب العلم وتحصيله ، وبذل الصدقات أو إغاثة الملهوف واحترام الكبير وطاعة الحاكم .

بعد عرض هذه الألوان من الأعمال الإنسانية يمكننا أن نقول أن العلماء من الأخلاقيين والقانونيين والشرعيين قد اتفقت كلمتهم على الأعمال الآلية والأعمال العكسية ، والأعمال التى أكره عليها الإنسان ، وليست داخلة فى المسئولية وبهذا لا يكون عملها منافيا

للخير، فلا يعتبر رذيلة بمعنى أنها لا تدخل تحت الأعمال الخلقية التى هى موضوع علم الأخلاق.

وأما الأعمال الإرادية فهى التى تكون من الأعمال التى يمكن أن نقول عنها أنها خيراً أو شراً وبذلك تكون محلا للمقياس الخلقى.

٦ — أعمال الناس والمخطىء: وهى أعمال إرادية محضة، ولكن يمكن ألا تكون لو فطن الإنسان إليها أو إلى عواقبها، ولكن النسيان هو الذى أحاط به فلم يتنبه لذلك أو حال الخطأ بينه وبين القصد السليم.

وهذه الأعمال يرى الكثير من الشرعيين عدم المؤاخذة عليها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»[1].

ولكن القانونيين ذهبوا إلى مسئولية هؤلاء فى بعض الأعمال كالقتل الخطأ — مثلا بحجة التقصير فى عدم الاحتياط الكامل، وقد وافقهم فى ذلك بعض علماء الدين استناداً منهم إلى تفسير قوله تعالى حكاية عن بعض المذنبين الذين قالوا:

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»[2].

مما يفيد أنه لو لم تكن هناك مسئولية ما طلبوا عدم المؤاخذة وهذا رأى لبعض مفسرى هذه الآية.

ولكن يمكن أن نرد عليهم بما هو أصل للمسألة وهو قوله تعالى:

---

(١) رواه الطبرانى فى المعجم الكبير عن ثوبان رضى الله عنه.

(٢) سورة البقرة من الآية ٢٨٦

«... وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم»[1] [صدق الله العظيم]

فنفى الجناح عن العمل الخطأ دليل على عدم المسئولية بل يؤكد ذلك قوله: «ولكن ما تعمدت قلوبكم» ففى التعمد إرادة حرة صريحة تحتم المسئولية وبهذا فلا مسئولية على الناس والمخطىء لانتفاء العمد فى فعلها.

٧ — أما المكره فالأمر فيه ظاهر، ويؤكد رأى العلماء فى عدم المسئولية قول الله تعالى: «إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان»[2].

فالإكراه ولو على الكفر لا مسئولية تلحقه على هذا الكفر المكره عليه وكما هو ظاهر من نص الحديث السابق فى قوله:

«وما استكرهوا عليه» فضلا عما هو مركوز فى فطرة العقل السليم من أن المكره على فعل ما لا يعاقب عليه[3].

---

(١) سورة الأحزاب ٥

(٢) سورة النحل من الآية ١٠٦

(٣) علم الأخلاق نيقوما خوص لأرسطو — ترجمة أحمد لطفى السيد — ص ٣٦٦ ج ٣ ط دار الكتب المصرية ١٣٤٣ هـ.

وانظر أيضاً الأخلاق — أحمد أمين — ط ٤

٢ — الفلسفة والأخلاق

كانت الأخلاق فى أول أمرها من الفلسفة ، حيث كانت الفلسفة تطوى فى شجاعة كل معرفة تحت جناحيها ، بل ورائدة ركب التقدم العقلى والثقافى .

ولما طاف عليها طائف العلوم ، وأصبحت كالصريم ، انفصلت عنها بموضوعها الخاص الذى لم يذهب عنها بل ظلت بينهما صلة وثيقة .

بحثت الأخلاق عن الحياة الفاضلة ، وعن الخير وما منفعته ؟

وعن السعادة ، وهل وجدت الأخلاق أن أسمى الفضائل فى حكمة سقراط ؟ أم فى شجاعة نيتشه ؟ أم فى سماحة الأديان ؟ وهل تكون اللذة غاية الحياة ؟ أم القوة التى تسيطر على كل شىء بحق أو بغير حق ؟ أم اللذة فى الواجب أم فى السيادة .

حقيقة لا نظفر بالإجابة عن كل هذا إلا إذا قصدنا علم الأخلاق لنرى فيه الترجمة الواضحة على لسان فلاسفة الأخلاق فى زمانهم ومكانهم المختلفة بل وفى الأديان .

فهم الذين يملون قوانين السلوك وقواعد السير فى الحياة ، مستهدين المثل العليا التى كانت تتخذها الشعوب مقاييس لقيمهم السلوكية .

ونشاهد أيضا مقدار تقدم الضمير الإنسانى الذى يرى خاضعاً كغيره لقانون التطور العام .

وهل تطور الضمير وما يطرأ عليه من تغييرات معناه المقصود منه أن التغيير لذات الضمير ؟

أم للسلوك التابع لمؤثرات أخرى طغت على الضمير فظنها الناس أنها الضمير ؟

وهل ذاتية الضمير تكونت من العادات والتقاليد ؟

أم ذاتية الضمير هى التى أملت السلوك الذى سمى فيما بعد بالعادات والتقاليد ؟

أم نقول أن من هداية الأديان وبالأخص السماوية السابقة ما وجه السلوك إلى وجهاته العملية حتى اعتادها الناس فأصبحت تقاليداً ومثلا عليا يقصدون إليها وإلى تحقيقها ؟

أسئلة كثيرة يطرحها الذهن وأجابت عنها الفلسفات القديمة والحديثة ثم جاء الدين وخاصة الإسلامى بوحيه المعصوم وحسم هذه التساؤلات حسما لصالح الإنسانية كلها والفرد فى دنياه وأخراه .

يمكننا بعد هذه النظرة السريعة ، التى نرى من خلالها موضوعات الأبحاث الخلقية والتى نشأت عنها قوانين الأخلاق التى تقاس بها أعمال الإنسان وسلوكه من حيث إنها خير أو شر .

ونتمكن من الحكم عليها بالقبول أو الرفض ، بالاستحسان أو الاستقباح وهل هى السعادة أو الخير أو الفضيلة أو اللذة أو الواجب ؟

موضوعات متعددة أدلت فيها المدارس الفلسفية القديمة والحديثة بدلوها ونظراً لضيق مساحة البحث نرى أن نلقى نظرة عابرة على المدارس الفلسفية ووجهة نظرها فى ما يصلح ضابطاً أو مقياساً فى الأخلاق .

ولو تتبعنا آراء العلماء والفلاسفة الأقدمين والمحدثين والمعاصرين بل وعلماء الأديان ، لرأينا عنايتهم بالأخلاق وعلم الأخلاق وجهودهم المتواصلة من زمن قديم فى معرفة غاية النفس الإنسانية ووضع مبادىء يقوم عليها سلوك الناس ليصلوا إلى كمالهم المنشود كما سنراه فى الإيجاز السريع الذى نقدمه ، والذى يدل على اهتمام كل المفكرين من العلماء والفلاسفة ، بعلم الأخلاق .

(أ) القدامى والأخلاق :

فالقدامى منهم لا يقنعون للإنسان إلا بالوصول للخير المطلق أو الأعلى ولذا كان الخير غايتهم ، ورسم الطريق له من كبير عنايتهم .

ولما كان الخير المطلق يشمل السعادة والفضيلة ، هرع العلماء والفلاسفة إلى البحث فيهما ومعرفتهما والبحث عن الخير وأصليته والأعمال التى تؤدى إليه ليفعلوه وعن الشر ليتجنبوه .

وكان لكل وجهته ونظراته الخاصة .

١ — فسقراط ومدرسته يجعلون الغرض الأول للإنسان « الفضيلة » وتجىء السعادة تبعا لها وقد حصر الفلسفة فى علم الأخلاق ، وأرشد إلى منبع الخلقية وهو الضمير ، ويقول ، الفضيلة وليدة المعرفة فمن عرف الخير فعله ، ومن عرف الشر بعد عنه[1] .

٢ — أما الأبيقوريون وأمثالهم : فيجعلون الغاية من الحياة « السعادة » وكل عمل يؤدى إليها — مهما كان — فهو فضيلة ومقياسها « اللذة » وهذان

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية — يوسف كرم — ص ١٠٢ .

الطريقان العقل والنظر كانا رائدهم فى البحث كما هو منهج الفلاسفة[1] .

٣ — وأما بنو إسرائيل فقد جرى العرف عندهم على أن الله يجازى الطائع على ما فعله من البر ولو لم يؤمر به على لسان نبى ، وأنه يعاقب على كل فعل شر ولو لم ينه عنه على لسان نبى ، إذ ذاك منهى عنه بالفطرة التى يعرف بها الخير والشر وإليها يرجع فى الأخلاق .

٤ — ولما جاءت المسيحية جعل رجالها وفلاسفتها معرفة الخير أمراً لله وحده ينزل به وحيه ، بل أقاموا الأمور الأخلاقية على الوجدان ، وكان القديس أوغسطين ٤٣٠ م يقول :

« إن الفضائل إذا انقطعت صلتها بالله كانت رذائل » ولذا أبعد العقل عن ميدان البحث فى الفضائل والرزائل وكانت « الفضيلة » عندهم بإطلاق هى الإحسان أى حب الله وحب الإنسان لأجل الله لأن الإنسان هو موضوع عطف الله ورحمته « السعادة » أن يحب المرء الله وأن يكون محبوباً من الله وأما « الخير الأعلى » الذى وسيلته الإحسان وحب الله فلا يتحقق فى هذه الحياة التى لا تتسع له بل يكون فى الدار الآخرة التى أعد الله فيها ما شاء للمصطفين الأخيار .

وبهذا يمكننا أن نقول أن المسيحية قد أدخلت فكرة جديدة حين قرنت عقيدة الثواب والعقاب بالحياة الخلقية التى يحياها الإنسان فى دنياه ، وهى مبنية على الحرية والاختيار[2] .

(١) أضواء على الفلسفة اليونانية — د. سلام عبد العليم ص٢٢ .
(٢) المجتمع اليهودى — زكى شنودة — الخانجى ص٧٣ وما بعدها .
(٣) أضواء على الفلسفة اليونانية — د . صلاح عبد العليم ص٢٣ وما بعدها .

٥ — ثم جاء القرن الثالث عشر الميلادى ، وسادت فيه تعاليم أرسطو والفلسفة المدرسية بلغت أوجها ، ومزجت فيه الأخلاق من المسيحية والأرسطية وكان سانت توماس ١٢٢٦ — ١٢٧٤م أحد رجال الدين التابعين للكنيسة الغربية يرجع الأخلاق إلى وجهتين : فلسفية ودينية :

أما الفلسفية : فترى الحكمة والعدالة والشجاعة والعفة فضائل لا شك فيها يكتسبها المرء وتؤدى به إلى السعادة الطبيعية .

وأما الدينية : فهى تؤدى إلى السعادة القصوى ، فوق الطبيعية وتكون راجعة إلى فضائل ثلاث أخرى ، هى الإيمان ، والإحسان للناس فى سبيل الله والأمل فى الحياة الأخرى التى ينال فيها كل أمرىء حظه من الثواب .

(ب) : فلاسفة الإسلام والأخلاق :

ازدهرت فى الإسلام ثقافات متعددة وصار له فلاسفة فى الأخلاق وغير الأخلاق ورأينا العلماء المسلمين على اختلاف مدارسهم الفلسفية ومذاهبهم الكلامية والأخلاقية قد اتجهوا إلى أبحاث فى المسائل الفلسفية الأخلاقية الهامة وهى بيان مدى قدرة العقل وسلطانه فى معرفة الخير والشر ، والحسن والقبيح وهل هذه الأمور يدركها العقل بنفسه ويدرك ما فيها من حكم الله ؟ أم هى أمور لا تدرك إلا بالشرع وبالتالى لا يعرف حكم الله فيها إلا بوحى من الله ، وما كان من خلاف بين المعتزلة والأشاعرة والماتريدية والسلف وغيرهم من فرق الشيعة والخوارج والقدرية لا يحتاج إلى تفصيل ليس هنا محله .

ولكن الذين بحثوا فى الأخلاق وكتبوا فيها وكانت لهم نزعات مختلفة فى مناهجهم وغاياتهم قد اتجهوا إلى وجهات شتى فمنهم من تمنى بالأخلاق

العملية حيث كانت وجهة الدين كالبصرى والماوردى ومنهم من سادته النزعة الدينية الصوفية المختلطة بكثير من النظر الفلسفى كالغزالى .

أما فلاسفة الإسلام كالكندى والفارابى وابن سينا وإخوان الصفا وابن مسكويه وابن باجة وابن طفيل ، فقد أقاموا مذاهبهم الخلقية على أسس فلسفية ظاهرة لأنهم لم يقبلوا أن تكون السعادة فى اللذة بل السعادة الحقة هى فى الجمع بين جزئى الحكمة العملى والنظرى : أى السعادة تكون بالفضيلة والعلم ، والفضائل وسيلة لتهذيب النفس وتخليصها من أدران المادة لتكون صالحة للفيض الإلهى وإشراق النور الأعلى ، وبالوصول إلى هذا الفيض وإدراك الأمور الالهية على حقائقها يكون تمام السعادة العظمى .

يقول الفارابى[1] :

والأفعال الإرادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة والهيئات والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال هى الفضائل ، والأفعال التى تعوق عن السعادة هى الشرور والهيئات والملكات التى تكون عنها هذه الأفعال هى النقائص والرذائل .

أما ابن مسكويه فقد عرف الخلق بأنه حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية ، نراه يتحدث عن السعادة فيقول :

« السعادة على الإطلاق تكون بالجمع بين جزئى الحكمة النظرى والعملى ، بالفلسفة النظرية يمكن تحصيل الآراء الصحيحة والعلوم التى تنتهى بالعلم الإلهى وبهذا تذهب حيرته ويسكن قلبه ، ويظهر

(١) المدينة الفاضلة — الفارابى — ص ٣٧ .

الحق ، فتكون لذته التى لا تعادلها لذة [١] .

وبالفلسفة العملية يمكن تحصيل الهيئة الفاضلة التى تصدر عنها الأفعال الجميلة ويصل المرء إلى الكمال الخلقى فلا تتغالب قواه وتهيمن عليها القوة المميزة وتصدر كل أفعاله عنها .

وإذن يكون الإنسان باستكماله شطرى الحكمة حكيماً وفيلسوفاً وقد سعد السعادة التامة [٢] .

ثم جاءت النهضة العلمية : التى جاءت فى نهاية القرون الوسطى ، وبدأت فى أول القرن الخامس عشر ، واستمرت حتى نهاية القرن السادس عشر ، كان لها أثر واضح فى أنها قامت :

(ا) بفصل الأخلاق عن الدين .

(ب) عمدت إلى إرجاع الفلاسفة إلى الفلسفة اليونانية وما أثر عنها .

(جـ) توجهت إلى البحث بالعقل وحده عن حل لمسألة « غاية الإنسان من عمله » .

(د) التجأت إلى العقل تستوحيه مبادىء السلوك .

ثم جاء الفلاسفة المحدثون فى أوائل القرن السابع عشر الميلادى الذين عرفوا بفلاسفة « ما وراء الطبيعة » ، قصروا عنايتهم على

(١) الفوز الأصغر — ابن مسكويه — ص ٦٥ : ٧٢

(٢) تهذيب الأخلاق — ابن مسكويه ص ٨٩ وانظر أيضاً السعادة لابن مسكويه ص ٤٣ وانظر أيضاً السعادة القصوى — د . عبد السلام خضير .

تحرير الأخلاق « من استبعاد الدين ورد ما ضاع من سلطان العقل إليه .

وهذا الفريق نجده ممثلا فى ديكارت ١٥٩٦ — ١٦٥٠ م وما لبرانش ١٦٣٨ — ١٧١٥ ، وإسبينوزا ١٦٣٢ — ١٦٧٧ وليبنز ١٦٤٦ — ١٧١٦م وقالوا :

« فى العقل مبدأ الفضيلة والسعادة » [١] .

ورأوا أن الخير المطلق فى استقلال النفس والعقل ، الذى يجعلنا نتشبه بالله فتكون إرادتنا من إرادته .

ومدرسة أخرى نرى فلاسفتها قد فهموا الأخلاق وغاية الإنسان بفهم آخر فجعلوا غاية الحياة هى منفعة الفرد وحده ولكنها لا تتحقق إلا برعاية المنفعة العامة فيجب إذن التضحية ببعض تلك المنفعة الشخصية ويمثل هذه المدرسة هوبس ١٥٨٨ — ١٦٧٩ م ، وجون إستيوارت مل ١٨٠٦ — ١٨٧٣ م [٢] .

وإذا تركنا مذهب المنفعة إلى المدرسة الايكوسية نجد من أشهر رواد هذه المدرسة الفيلسوف الاقتصادى الكبير آدم سميث ١٧٢٣ — ١٧٩٠ م والفيلسوف الإنجليزى شافتبرى ١٦٧١ — ١٧١٣ م والأخلاقى الفرنسى هتشسون ١٦٦٤ — ١٧٤٧ م

(١) الأخلاق — إسبينوزا — ج ٢ الفقرة ٢١ — ج ٢ فقرة ٣ وانظر أيضاً رواد الفلسفة الحديثة — تأليف ريتشارد شاخت ترجمة د. أحمد حمدى محمود ص ١٢ : ٥٣

(٢) نفس المرجع السابق .

ويرى أصحاب المذهب بصفة عامة أن فينا عاطفة تهدينا للخير والشر وحاسة ترشدنا الى الحسن والقبيح فعلينا نركن إليها كما نركن إلى حاسة النظر فى معرفة الألوان والأشكال .

ومن فلاسفة هذا المذهب :

(ا) شافتبرى : ويرى أن هذه الحاسة تهتز للسرور الداخلى وتلتذ به أكثر من اهتزازها بالمسرات الخشنة المادية التى يعترك عامة الناس من أجلها لتصيب الخير وتظفر بالسعادة .

(ب) وهتشسون: ايرى أن الإنسان يستطيع أن يعرف الخير والشر بدون فكر ونظر عن طريق هذه الحاسة[1] .

(جـ) أما آدم سميث : فإنه يعنى بهذه العاطفة « الميل النفسى » التى يربط بين نفوسنا وأحاسيسنا .

وبينما كان مذهب العاطفة أو الحاسة الأخلاقية رائجاً عند كثير من الفلاسفة فى انجلترا وفرنسا وأيكوسيا ، نرى آخرين من الفلاسفة يدعون لمذهب المنفعة ويستمرون فى الدعوة له كهربرت سبنسر ١٨٢٠ — ١٩٠٣ م الفيلسوف الإنجليزى ، وصاحب مذهب التطور والذى أراد أن يخضع الأخلاق والدين لقانون التطور لانتخاب الأصلح .

فى ذلك الحين نرى ألمانيا : وقد تمخضت عن فيلسوف الواجب « عمانويل كانط » ١٧٢٤ — ١٨٠٤ وقد أقام الأخلاق على فكرة الواجب وعلى الإرادة التى تخضع له دون غيره . ولذا اتبع الخير

(١) الموسوعة الفلسفية المختصرة ـ ترجمة فؤاد كامل وآخرون ـ الأنجلو ص ٣٨١

لمبدأ الواجب وبهذا بدل كانط الأخلاق وجعلها تابعة لخير الإنسان الإنسان لم يتكلم عن العقل وأقسامه وعن الإرادة ، وعن قواعد الخير التى لا يضل المرء باتباعها .

قسم كانط العقل إلى عقلين : عقل نظرى وعقل عملى — والعقل العملى هو المعول عليه وأن خير نعمة عند الإنسان هى « الإرادة الطيبة » أى التصميم على عمل الواجب ، وهذه الإرادة يجب ألا تخضع إلا للعقل العملى وحده فى كل أعمالها وأن تكون حرة ، وقد وضع لعمل الخير ثلاث قواعد لا يصل الإنسان إلى الخير إلا بها وهى :

(أ) اعمل على إن تكون الإنسانية فى رأيك غاية فى نفسها لا وسيلة لغايات أخرى .

(ب) اعمل دائماً حسب المبدأ الذى تستطيع أن تجعله قانوناً عاماً لا استثناء فيه .

(حـ) اعمل كل ماترى أن ضميرك هو المشرع له وأن إرادتك تقوم من نفسها بتنفيذه وجعله قانوناً عاماً .

ولا يخفى على دارس الفلسفة الإسلامية أن هذا المذهب الأخلاقى بينه وبين مذاهب الفلاسفة المسلمين كبير شبه كما يظهر ذلك عند الفارابى وابن سيناء وابن مسكويه مع أنهم سبقوه بقرون عديدة .

بنى كانط مذهبه الأخلاقى على نقده اللاذع للمذاهب الأخلاقية السابقة وبالأخص التى تدعى تفسير الخلقية بطبيعة الإنسان كما هى معلومة بالتجربة والتاريخ ويرى أنها تشترك فى عيب جوهرى : هو عجزها عن إقامة قوانين كلية للإرادة . فإن مثل هذه القوانين لا تطالع إلا فى العقل فقط .

ويعود فيقول : ويمكن ترتيب هذه المذاهب فى طائفتين : واحدة تعتمد على مبادىء حسية وأخرى تعتمد على مبادىء عقلية .

١ — وترجع مذاهب الطائفة الأولى : « فكرة السعادة » إلى :

(أ) الحساسية الطبيعية ، كما فعل ارستيب دايقور وهوبس وأحزابهم .

(ب) العاطفة الأخلاقية ، كما فعل شافيسبرى وأشياعه .

٢ — وأما مذاهب الطائفة الثانية فترجع إلى فكرة الكمال وتصوره فى :

(أ) حالة نفسية حادثة بالإرادة ، كما يرى عند ليبنتز .

(ب) أو هو الله نفسه المشرع الأعظم كما يقول اللاهوتيون .

وينتهى بعد ذلك إلى قوله : فمن العبث ومن الخطأ محاولة إخضاع القانون الأخلاقى لموضوع ما أو لسلطان موجود أعلى .

ثم إلى بيان المبدأ الأخلاقى حيث يقول :

شىء واحد يعتبره الناس خيراً بغير تحفظ هو الإرادة الصالحة وهى خيرة بذاتها لا بعقولها وترجع إلى الواجب فهى عاطفة أصيلة بالمرء ربما ترجع سائر العواطف إلى الميل أو إلى الخوف .

أما مواهب الطبيعة كالذكاء وسرعة الحكم والشجاعة والحزم ، وأما مواهب الحظ والجاه والسلطة . وأما لذات الحياة على اختلاف أنواعها فلن يراها الضمير العام خير اللذات وإنما هى مجرد وسائل نستخدمها الإرادة كما تشاء .

هذه نظرة عامة وخاطفة أطللنا من خلالها على كيفية معالجة المدارس الفلسفية قديماً وحديثاً للمشكلة الخلقية وقد رأينا أن نظرة هذه المدارس يغلب عليها الطابع النسبى فى معالجة المشكلة الخلقية .

إلا أن هذه النسبة تكون فى النهاية أفكاراً أخلاقية تتسم بالإيجابية والنفع العام .

لكن تبقى مشكلة أرى لزاماً على أن أنوه عنها ألا وهى :

إغفال كتاب الفلسفة الأخلاقية فى القديم والحديث لحالة العرب قبل ظهور الإسلام على حين أن الذين أرخوا للعرب الجاهليين وكتاب السير أشاروا إلى أن العرب لم يتجردوا من الأخلاق الفاضلة بخلاف ما هو شائع على السنة الوعاظ وخطباء المساجد من أن العرب كانوا يعيشون فى فساد دائم وضلالات .

على حين أن الأمر بخلاف ذلك فالعرب قبل الإسلام كانوا مجتمعاً عادياً يتصفون بفضائل الأخلاق وقبيحها فلم يعدموا الخلق الحميد بل اشتهروا ببعض الأخلاق التى نتمنى أن يتصف بها المجتمع المتحضر الآن مثل إكرام الضيف والوفاء بالعهود وإجارة المستجير ، فهذه الخصال متواترة عن العرب قبل الإسلام وبعده وقد أشار النبى ﷺ فى حديث من أحاديثه الشريفة إلى أن العرب لم يتجردوا من الأخلاق المحمودة حيث قال ﷺ « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق »(١) كما أن العرب كانوا يعرفون القيم الأخلاقية مثل الصدق والأمانة والعفة فوصفهم للرسول

(١) أخرجه مالك فى كتاب حسن الخلق باب ما جاء فى حسن الخلق ٩٠٤/٢ ، وأخرجه البيهقى فى كتاب الشهادات باب بيان مكارم الأخلاق ومعالمها ١٩١/١٠ ، وأخرجه الحاكم فى كتاب التاريخ ٦١٣/٢ .

ﷺ الصادق الأمين يدل دلالة واضحة على أنهم كانوا يعرفون هذه القيم الأخلاقية بل وكانوا يفهمون محتوى ودلالات : الأمانة ـ الصدق ـ العفة، ومما يدل دلالة قاطعة على وجود هذه القيم والثوابت الأخلاقية وأنها دليل على نجاة المرء من مصارع السوء ماورد فى حديث بدء الوحى المعروف على لسان السيدة خديجة لرسول الله ﷺ بعد أن أخبرها ما حدث له أثناء بدء الوحى « كلا والله ما يخزيك الله أبداً .... وتعين على نوائب الحق »[1] .

ولما جاء الإسلام بتعاليمه السماوية أبقى وأقر كريم الخصال وميز بين الخسيس والنفيس من الناس فقال عليه الصلاة والسلام (الناس معادن خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الإسلام إذا فقهوا)[2] ولعلنا من خلال هذه الإطلالة نكون قد ألقينا الضوء على نظرة العرب قبل الإسلام للأخلاق فصاحب الخلق وعديم الخلق كلاهما فى تغير مستمر ، بين التقاليد الثابتة الموروثة والعادات الجديدة التى تشق طريقها إلى الظهور ولا يعرف أحد بالضبط مدلول الأخلاقية واللا أخلاقية وكيف يمكن تعريفها من جديد ؟ لنستعين بها فى فهم سلوك الإنسان فى العصر الصناعى والمدنى وأين نجد قانوناً أخلاقياً يتفق مع ظروف حياتنا المتغيرة ويرفعنا مع ذلك ، كما رفع القانون القديم الناس إلى الرقة والدعة والحياء والأدب والنبل والكرامة والفتوة والنجدة والحب ؟ أو يرفعنا إلى فضائل جديدة كهذه الفضائل وكيف نعرّف الخير تعريفاً جديداً وكيف نعيد بناء الأساس الخلقى للمجتمع الكبير ؟

---

(١) صحيح البخارى — كتاب بدء الوحى ١/٣٠—٣١ ج ٣

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأنبياء باب قول الله تعالى « لقد كان فى يوسف وإخوته آيات للسائلين » ١٣/١٦٥ ج ٣٣٨٣ فتح البارى .

٣ ـ الأديان والأخلاق

وإذا كان الأمر كما رأينا ، فلامندوحة من أن يتجه العقلاء إلى الدائرة التى يمكنهم أن يرتووا منها ، ويرتشفوا من مناهلها الفياضة ليستر شدوا بهديها ويسيروا على نورها ، حيث تشرح لهم هذه الغاية البعيدة ، التى يتطلع إليها الناس فى أعمالهم السلوكية ، ويطلبون منها تحديد الصلات والمعاملات وبيان الفضائل وتوضيح الخير وتحديد السعادة .

هذه الدائرة العزيزة المثال على العقل هى فى ساحة الأديان ، كل الأديان السماوية التى تفضل الله بها على خلقه منذ أوجده وجاءت بها الأنبياء والمرسلون « فهم نعم المصلحون ونعم المرشدون » ولما كان القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية ودينه هو الدين الخالد .

« اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »[1] .

والقرآن مصدق لما قبله من الكتب السماوية .

« أنزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس وأنزل الفرقان »[2] .

فيجب علينا والحالة هذه أن ننزل بساحة القرآن وندخل فى دوحته وننهل من معينه ونستقيم مع هديه فينصلح بذلك أمرنا كأفراد وجماعات وتسعد الإنسانية وتعيش فى وئام وسلام .

---

(١) سورة المائدة آية ٣ (٢) سورة آل عمران آية ٣ ، ٤ .

حقاً أن من أهم المقومات لحفظ كيان الأمم والمجتمعات الإنسانية هو نظامها السلوكي التعاملي الأخلاقي والدين قانون الحياة فغرضه الارتقاء بالإنسانية إلى مدارج الكمال الذي هو غاية الوجود وهو الذي يقيم المبادىء الأخلاقية الرئيسية، على أسس وقواعد راسخة منظمة وينظم العلاقات الاجتماعية ويقرب الإنسان أكثر فأكثر نحو الإنسان الكامل عن طريق تمشيه مع تطور العقل.

والدين يضم في ذاته أنبل المظاهر التي تتفق مع العقل والتهذيب الأخلاقي في الإنسان وهي ترقية خيرة لطاقة العقل التي هي الضمير الحي ويجمع ما بين المفاهيم التي ساعدت على تكوين السلوك القويم في النفس البشرية في مختلف العصور، وبين قيمة النفس الإنسانية التي كانت تحظى بتقدير كبير في الفلسفات القديمة.

ونحن لا نعد الحقيقة حين نجزم بأنه هو الدين الإسلامي الذي يعتمد على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وليس مجرد مذهب ما، بل حياة يعيشها المرء في حاضره بين العمل الرشيد والتفكير الصائب والكلمة الصالحة، وكل ذلك مقام على صرح الحب المقدس والخير الإنساني العام.

أما تاجه الرفيع فعدالة ومساواة ومهما يكن فإن الدين ظل وسيظل موئلا للحق وملاذاً للفضيلة وسياجا من كل رذيلة.

٤ — القرآن وأخلاق النبوات

قص علينا القرآن الكريم من أخبار النبوات والرسالات السابقة أنها كانت تحث على مكارم الأخلاق وتحض على الاستمساك بفضائل الأعمال وتشدد النكير عن من يتردى في الرذائل.

قال تعالى: «إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم والآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولاخوف عليهم ولا هم يحزنون»[1].

وقال تعالى: «وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل لاتعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين وقولوا للناس حسناً وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»[2].

وقال الله تعالى: (في شأن عيسى عليه السلام: قال إني عبد الله أتاني الكتاب وجعلني نبيا وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حيا، وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا»[3].

وقال تعالى: كذب أصحاب الأيكة المرسلين إذ قال لهم شعيب ألا تتقون إني لكم رسول أمين، فاتقوا الله وأطيعون، وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين، أوفوا الكيل ولا تكونوا من

---

(١) سورة البقرة آية ٦٢
(٢) سورة البقرة من الآية ٨٣
(٣) سورة مريم الآيات ٣٢ — ٣٤

المخسرين وزنوا بالقسطاس المستقيم ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين »[١] .

قال الله تعالى : إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون ، وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون »[٢] .

وقال تعالى : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين »[٣].

تكلم آيات بينات من القرآن الكريم تصرح بدعوة الأنبياء والمرسلين وتحدد الهدف الذي تقصده النبوات والرسالات السماوية ، من طلب للفضيلة ، ونهي عن الرذيلة في كل مجال من المجالات الاجتماعية والإصلاحية والتي تقود الأمم والجماعات إلى التقدم والرقي ، نحو الحياة السعيدة والسلام الشامل « فالأنبياء أخوة وأمهاتهم شتى ودينهم واحد »[٤] ، « أولئك الذين هداهم الله »[٥] .

هذا ولم ينس التاريخ الصحيح بل حفظ لنا كثيراً وكثيراً من وصايا بعض الأنبياء والرسل الذين أرسلهم الله لهداية المجتمعات الإنسانية ، في عصورها المختلفة والذين ذكرهم الله في القرآن الكريم .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٧٦ — ١٨٣

(٢) سورة النحل آية ٩٠ ، ٩١

(٣) سورة الأعراف آية ١٩٩

(٤) البخاري ٦ / ٤٧٦ كتاب الأنبياء باب قوله تعالى واذكر في الكتاب مريم .

(٥) سورة الزمر الآية ١٨

٥ — الأخلاق في التوراة

١ — إذا نظرنا إلى كتب العهد القديم نجد في التوراة عقيدة :

« إن الإنسان مركب من جسم يعود للتراب بعد الموت ، ومن نفس خالدة ، تحاسب على ما كان منها في الدنيا ومن هنا كانت لهم عواطف مشبوبة نحو العدالة والخير والفضيلة .

ونقرأ لهم من الآداب : « النهي عن منع الخير لأهله والمرء قادر عليه ، وأن الرب يبغض العيون المتعالية . واللسان الكاذب ، والأيدي السافكة الدم البريء ، والقلب العامر بأفكار الشر والأرجل السريعة الجرى للسوء وشاهد الزور ، وزارع الخصومات بين الأخوة . . وأن مسايرة الحكماء يصير حكيما ورفيق الجهالة جاهل لا محالة » .

٢ — وفي التلمود : « أحبب غيرك كنفسك ، ولا تعامله بما لا تحب أن يعاملك به ، من لا يضطهد مضطهديه ، ومن يتحمل الإهانة صامتا ، ومن يفعل الخير حباً في الخير ومن يستسلم لآلامه فرحاً ، أولئك هم أصدقاء الله » .

٣ — وفي الوصايا العشر نرى مبادىء عالية للخلقيات الموسويه .

٦ — أخلاق المسيح

نرى صفحة مشرقة من صفحات سيرة السيد المسيح عليه السلام رفع فيها الضمير الإنسانى ورد إليه العقيدة كلها وجعلها كفوا للعالم بأسره .

فاستمع إليه حيث يقول :

« وماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله ، وخسر نفسه ؟ أو ماذا يعطى الإنسان فداء نفسه ؟ »[1]

إن الطهر كل الطهر فى نقاء الضمير فمناط الخير كله فيه ، ومرجع اليقين كله إليه فليس شىء من خارج الإنسان يدنسه بل مايخرج من الإنسان هو الذى يدنسه وأن مايدخل الفم لاينجى الإنسان ، وإنما الذى يخرج من الفم ذاك ينجى الإنسان وهو الأفكار الشريرة .

وكان عليه السلام ينعى على المولعين بظواهر الأفعال ، دون حقائق الإيمان ويقول لهم :

« نقوا الكأس من داخلها » « إحترزوا من صدقة تصنعونها أمام الناس وإلا فلاأجر لكم .. وإذا بذلت الصدقة فلا تنفتح أمامك بالأبواق ، كما يفعل المراؤون — بين الناس ، والحق أقول لكم قد استوفوا أجورهم فالذى يراك فى الخفاء يجزيك فى العلانية »[2] .

---

(١) العهد الجديد — إنجيل متى ص ٣٠ — ٣١ الإصحاح السادس عشر .

(٢) العهد الجديد - إنجيل متى - الإصحاح ٦ ص ١٢

ويرى عليه السلام « أن كل شىء فى عالم الحس ينقاد إلى قوة الضمير » وفى ذلك يقول :

« لو كان لكم إيمان كحبة خردل لأمرتم هذه الشجرة أن تخرج من منبتها و تنغرس فى ماء البحر فتطيع »[1] .

وكان يبشر بالرحمة والمحبة ، ويعلم الناس إن الله محبة ولايستحق غفران الله إلا من عرف كيف يغفر للمسيئين إليه » .

وقال المسيح لحواريه فى عظته على الجبل : « أحبوا أعداءكم » ، وباركوا لاعنيكم وأحسنوا إلى مبغضكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ، لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السماوات »[2] .

ومن هذا يمكننا أن نقول كيف نادى المسيح بالأخوة الإنسانية ، حيث إن الناس جميعاً أبناء الله تكلم صور ظاهرة وباهرة من أخلاق النبوات السابقة نعتز بما فيها من مبادىء سامية وبما أن كل هذه المبادىء موجودة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فالذى يقرؤها يجد شمولا واسعاً ، وتوضيحاً لكل نواحى الأخلاق الفاضلة ، وأسساً شامخة خالدة ، صالحة لكل زمان ومكان وبيئة وعمران .

لم يمدح الله جلت قدرته ، رسوله الكريم بشىء أفضل من الأخلاق، فاقسم وأكد وقال :

---

(١) العهد الجديد - إنجيل متى ص ٣٢ الإصحاح السابع عشر .

(٢) العهد الجديد - إنجيل لوقا - الإصحاح السادس ص ١٠٢

« ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجرا غير ممنون وإنك لعلى خلق عظيم »[1] .

وسئلت السيدة عائشة أم المؤمنين ـ رضى الله عنها ـ عن خلق الرسول فقالت كان خلقه القرآن[2] .

فالأخلاق هى القرآن ، والقرآن هو الدين .

(١) سورة القلم الآيات ١ ـ ٤

(٢) أخرجه مسلم فى كتاب الصلاة باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض ٣/١٣١ ح ١٧٠٨

الأخلاق والدين الإسلامى

وبعد عرضنا لوجهة نظر الفلاسفة القدامى وغيرهم فى المقياس الخلقى، وكذلك وجهة نشر الأديان السماوية فيما ينبغى أن يكون وما لا يكون من الأخلاق نرى تتمة للبحث أن نذكر رأى الإسلام فى المسألة ؛ لأنه الدين السماوى المهيمن على سائر الديانات والفلسفات ، خاصة وأن هذه الفلسفات تركز على جانب دون بقية الجوانب الإنسانية ، كما أنها قد تعنى بالفرد دون المجتمع وكذلك الأديان السابقة امتزجت فيها الحقيقة بالباطل .

هذا فضلا على أن الإنسان المعاصر الذى تتنازعه الإتجاهات الفلسفية المادية منها والمثالية فى أمس الحاجة إلى مصدر معصوم يستقى منه أخلاقه ، وهذا المصدر المعصوم لن يكون إلا فى الإسلام .

ولكن قبل عرض وجهة نظر الإسلام فى الأخلاق نرى أنه من الضرورى أيضاً أن نلقى نظرة على الإنسان المعاصر والتقدم العلمى والحضارى .

الحياة المعاصرة والإنسان :

لو تأملنا موقف الإنسان المعاصر فإننا سنجده يدور فى رحا المخترعات العلمية مستخدماً لها أو محاولا جلبها للنفع منها ، وهذان الأمران يتطلبان وفرة اقتصادية هائلة من هنا نجد الإنسان العصرى مدفوعا أراد أو لم يرد ، رغب أو كره لجلب المال من هنا وهناك حتى يستطيع أن يستمتع أو أن يستخدم كل مخترعات العصر من أجهزة حديثة مثل الكمبيوتر ، الإنترنيت ، الأطباق المستقبلة لوسائل الإعلام العالمية . . . إلى آخر

هذه المخترعات ، الأمر الذى جعل الإنسان نفسه يستحيل أيضاً إلى سلعة خاضعة لسعر الأسواق .

والواقع أن الإنسان المعاصر ـ فى ظل النظام الرأسمالى ـ قد استحال إلى مجرد سلعة ، فأصبح يعد قواه الحيوية مجرد رصيد يضعه موضع الاستثمار ، بغية الحصول على أكبر قسط ممكن من الربح ، وفقاً لما تقتضيه حالة السوق ، وهكذا أصبحت العلاقات البشرية ـ فى المجتمع الرأسمالى الحديث ـ خاضعة تماماً لقوة منظمة كبرى هى السوق .

وإذا كان ثمة شىء قد أصبح الإنسان المعاصر مفتقراً إليه ، فما ذلك الشىء سوى الوعى الأخلاقى الذى يمكن أن يوقظ إحساسه بالقيم .

وحسبنا أن نمعن النظر إلى حياة الإنسان الحديث ، لكى نتحقق من أنها حياة سطحية خاوية ، يعوزها عمق الاستبصار ، وينقصها كل إحساس بالمعنى أو القيمة ، خصوصا وأن الحياة الآلية الحديثة قد جعلت من وجود المخلوق البشرى وجوداً مزعوماً لا سكينة فيه ولا تأمل ، بل مجرد حركة وسرعة وتعجل .

ولم يعد الإنسان الحديث موجوداً قلقاً ، متهوراً ، متبلداً فحسب ـ بل لقد أصبح أيضاً كائناً سطحياً لا شىء يلهمه ، ولا شىء يمسه ، ولا شىء يحرك كوامن وجوده الباطنى .

والحق أن رجل الأخلاق هو على النقيض تماماً من الرجل المتعجل المتهور ، أو الرجل الغليظ المتبلد ، وقد كان العلماء يسمون الحكيم باسم الرجل العارف ، ولكنهم كانوا يعنون بالمعرفة هنا : الذوق ، فكان الإنسان العارف عندهم هو الإنسان المتذوق .

وهارتمان يشرح لنا معنى الإنسان المتذوق فيقول : إنه المخلوق ذو البصيرة الذى يصح أن نطلق عليه اسم : رائى القيم[١] .

ولا شك أن البون شاسع بين الفيلسوف الأخلاقى أو رائى القيم ذلكم العارف ، وبين المنهمك والمنغمس فى الحياة المادية بصخبها وشهواتها ، ولكن هل حقاً ما يذهب إليه بعض رجالات الفلسفة فى فكرنا المعاصر من أن الفيلسوف الأخلاقى من الممكن أن يرتقى أو يصل إلى درجة الألوهية فيصير شريكا للإله مبدعاً للأخلاق ؟

يقول الدكتور/ زكريا إبراهيم: إن الأخلاق الفلسفية لا تلقننا بعض الأحكام الجاهزة ، بل هى تعلمنا دائماً كيف نحكم !

وتوجه انتباهنا ـ بطريقة مباشرة ـ نحو العنصر الإبداعى فى الإنسان، فتتحداه ـ فى كل مرة ـ طالبة إليه أن يلاحظ ، ويحدس ، ويتكهن بما يجب أن يحدث ! إنها تدعوه إلى التصرف فى كل مناسبة وفقاً لما يستدعيه الموقف الخاص ، بحيث يجىء تصرفه سلوكاً أصيلا جديداً مبتكراً ! ، ولا غرو فإن الأخلاق الفلسفية لا تريد أن تحتبس الإنسان داخل بعض الصيغ الميتة الجامدة ، بل هى تريد له أن يتقدم باستمرار نحو المزيد من الحرية والمسئولية والقدرة على توجيه الذات . وليس من شك فى أن تحرير الإنسان من كل وصاية ، إنما هو بمثابة خلق جديد للإنسان ، ولكن التفكير الأخلاقى ـ وحده ـ هو الكفيل بتحرير الإنسان ، والسمو به إلى مرتبة الشريك الحقيقى لله فى عملية إبداع الكون[٢] .

---

(١) المشكلة الخلقية ـ دكتور زكريا إبراهيم ٩، ١١، ١٢ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ص ١٣، ١٤

فهذا الكلام وإن بدت فيه الدعوة إلى القيم الخلقية وإعلائها فوق النزعات المادية إلا أنه يحمل بين جنباته معانى الشرك .

فمن الفيلسوف الأخلاقى الذى يرتقى حتى يصير شريكاً لله فى إبداع الكون ؟ فى الواقع إن كاتب الأخلاق فى أمس الحاجة إلى تعلم الأدب مع الله عز وجل .

إن جملة تعجُّ بالشرك كهذه لا تصدر إلا من يسهل عليه أن يكون الشرك له اعتقاداً ، ومن لسان لا يتورع من النطق به .

إننا لا نقلل من قيمة الفيلسوف الخلقى ولا ننكر دوره فى الرقى بالسلوك الاجتماعى، كذلك لا نرفض قيمة علم الأخلاق باعتباره علماً له موضوعاته وإيجابياته، ولكننا نتساءل إذا وجد لدينا دين معصوم وفيلسوف عارف فمن أيهما نأخذ ؟ وإلى أيهما نلجأ ؟

إننى كمسلم أؤمن بربى ، وأثق ثقة عمياء فى مصادر الشريعة الإسلامية لا أرضى عن هذه الشريعة بديلا لاسيما وأن كتاب الأخلاق فى القديم والحديث لم يضعوا لنا إلا أطراً وتصورات نظرية ، فأفلاطون لم يستطع أن ينزل جمهوريته المثالية على الأرض ، والفارابى لم يستطع أن يرتقى بمجتمعه إلى مدينته الفاضلة لا لشىء إلا لأن هذه المدن والجمهوريات الفاضلة ظلت خيالا فى أذهان كتابها . فالأخلاق النظرية هى مجرد صيغ وقواعد نتمنى أن تتحقق .

والمقياس الخلقى مختلف تبعاً لاختلاف المذاهب والاتجاهات الفلسفية فمثلا الذين يحتكمون إلى العرف لا تسلم لهم دعواهم ، لأن العرف لا ثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف

لا يقره العقل ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفاً عند العرب فى الجاهلية فحرمها الإسلام ، وكان الاسترقاق عرفاً عند الأمم القديمة ، فلما جاء الإسلام ضيق روافد الرق ، وفسح الطريق لتحريرهم .

فالعرف إذن لا يصلح أن يكون مقياساً خلقياً يحتكم الناس إليه ، وكذلك الأمر بالنسبة للمنفعة المادية ، لأنها تحول المجتمع من مجتمع منظم إلى مجتمع غوغائى فوضوى .

فدعاة المنفعة المادية يتنكرون للأساس الروحى . ويعدونه نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساساً عاماً للناس كافة .

وهذا مكمن الخطر والضرر والتعادى والتدابر ، فإن صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة ، إذا قامت على أساس النفع المادى فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشره ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذى يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرين خصوماً له ، فلا تعاطف ، ولا تآلف ، ولا محبة ، ولا إيثار ، ولا إخاء ، ولا ثقة ولا سلام .

وكيف يتحقق شىء من هذه الفضائل فى عالم هبط إلى درك الحيوانية ، وفقد معانى الإنسانية ، ومثلها الكريمة ، ودعائمها الخلقية السامية ؟

فكل مقياس خلقى لا يحقق للمجتمع الضبط الأخلاقى فهو ملفوظ ، لأنه يهدم ولا يبنى حتى ولو كان تحت مسمى السعادة أو اللذة ، لأن دعاة اللذة والسعادة الفردية ينمون فى النوع الإنسانى حب الذات القائم على الأثرة ، وإنها لشر يأباه الخلق الكريم ، لأن الذى يفعل الخير لغيره مجلبة للذة أثر يفعل خيراً لنفسه لا للناس ، فهو يجود أو يشجع أو

يعف ليكسب ثناء ، أو ليشعر بالقدرة والتعالى والتفوق ، وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، ولأن الفاضل فى رأى أبيقور لا يعنيه شىء من الخير الذى يصيبه الناس ، أو من الشر الذى يحيق بهم إلا بالقدر الذى يمس سعادته أو شقاءه[1] .

أما الإسلام باعتباره دين من عند الله نزل على خير البشر جمع بين الأخلاق النظرية والعملية ، وحقق للإنسان والمجتمع السعادة الدنيوية والأخروية .

ولقد تمثلت أعظم المكارم وأسماها فى الرسول ﷺ فانبعثت من نفسه الشريفة عظمة الأخلاق المشرقة ووصفه ربه بقوله « وإنك لعلى خلق عظيم »[2] .

كما شرحت السيدة عائشة رضوان الله عليها ماهية الخلق النبوى فى إيجاز ودقة إذ تقول : « كان خلقه القرآن »[3] .

ويقول أنس بن مالك رضى الله عنه : « كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً »[4] .

---

(١) من أخلاق النبى ﷺ ـ الدكتور أحمد محمد الحوفى ص ١٣ ، ١٤ ، ١٧ بتصرف .

(٢) سورة القلم آية ٤

(٣) سبق تخريجه .

(٤) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب الكنية للصبى ٢٢/٣٩٥ =

وقد أبرز القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أثر الخلق الحسن ، وكشف لنا الرسول ﷺ عن آثاره ونتائجه قولا وعملا فى الدنيا والآخرة .

يقول الله تعالى : « ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم »[1] .

وهكذا نرى نتيجة الخلق الحسن فى الدنيا وكيف يعالج به القرآن نفوس البشر بهديه الناجع وشفائه لما فى الصدور « وكيف يتحول به العدو المتربص إلى صديق حميم ، وهنا يصل الإسلام بالإنسانية إلى مرافىء الأمان وطمأنينة النفس ، ويمسح كل ما علق بالجو النفسى من إحن وأضغان ويزرع فيها كل معانى الولاء والتعاطف حيث يتماسك المجتمع الإسلامى وتعزف حياته معانى النبل والتسامح .

وقد طبق الرسول ﷺ ذلك قولا وفعلا . عن عبد الله بن عمرو ابن العاص رضى الله عنهما : « لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحشاً وكان يقول : إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً »[2] .

= ح ٦٢٠٣ وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقاً ٧ / ٢٧٨ ح ٥٩٠٣

(١) سورة فصلت آية ٣٤ ، ٣٥

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب لم يكن النبى ﷺ فاحشاً ١٢٠ / ٢٣٩ ح ٦٠٢٩

وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل باب كثرة حيائه ﷺ ٨ / ٢٨٨ ح ٥٩١٩

كما وضح الرسول ﷺ نتائج الخلق الحسن فى الآخرة ، وأن المؤمن ليدرك بها عند ربه درجة تبلغ فى سموها مكانة الصائم القائم فكأنها عبادة مستمرة تنشر ظلالها الوارفة فى الحياة الدنيا وتؤتى ثمارها الطيبة فى الآخرة .

روى أبو داود عن عائشة رضى الله عنها قالت : سمعت النبى ﷺ يقول : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »(١) .

ومعلوم أن الصيام والقيام لونان من ألوان العبادة ، وهما أبعد العبادات عن المراء والتظاهر لما ينطويان عليه من الإخلاص التام لله ، حيث يتجلى فى السر ويملآن الوعاء الزمنى كله نهاراً بالصيام وليلا بالقيام ولا يطلع حقيقتهما إلا علام الغيوب ، وإنما يصل المرء بحسن خلقه هذه الدرجة لأنه بلغ فى صفاء سريرته ما بلغه الصائم القائم فيها ، ثم إن رعاية الرسول صلوات الله وسلامه عليه للأخلاق لا تقف عند بيان ما تضمنه من مثوبة تبلغ مثوبة الصيام والقيام فحسب ، بل إن اهتماماته لنتائج سيرة الأخلاق حتى تجلى لنا منزلتها فى الدين ، ومكانتها بالنسبة للإيمان ، ثم تحرى وزنها العظيم فى ميزان العدل الإلهى يوم توضع الموازين القسط ، بل إنه ليكشف لنا عن حفاوته بالأخلاق ورعايته لأربابها ، فيوضح ملقاها من مكانة مرموقة ودرجة سامقة ، هى أعلى ما يكون فى الجنة ، ثم لا يقصر أصحاب الأخلاق الحسنة عند هذه الدرجة الرفيعة وإنما يكونون مع ذلك أقرب الناس مجلساً من الرسول ﷺ يوم القيامة .

أما بالنسبة لمنزلة الأخلاق من الإيمان فبها يكمل الإيمان . روى الترمذى عن أبى هريرة رضى الله عنه :

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى حسن الخلق ١٣ / ١٠٨ ح ٤٧٨٨ .

قال : قال رسول الله ﷺ « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم »(١) .

وأما بالنسبة لوزنها فهى أثقل ما يوضع فى الميزان . روى الترمذى عن أبى الدرداء رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال : « ما من شىء أثقل فى ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حسن الخلق وإن الله يبغض الفاحش البذىء »(٢) وفى بيانه ﷺ لأثر الأخلاق فى دخول أعلى الجنة يقول : أنا زعيم ببيت فى ربض الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقاً ، وببيت فى وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحاً ، وببيت فى أعلى الجنة لمن حسن خلقه »(٣) .

وفيما رواه الترمذى عن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : « إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً ، وإن من أبغضكم إلى وأبعدكم منى يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون ؟ قالوا يارسول الله قد علمنا : الثرثارون والمتشدقون فما المتفيقهون ؟ قال المتكبرون »(٤) .

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب الرضاعة باب ما جاء فى حق المرأة على زوجها ٤ / ٢٥٥ ح ٥٦

(٢) أخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى حسن الخلق ٦/ ١٠٩ حديث ٢٠٠٢

(٣) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب « فى حسن الخلق ١٣/ ١٠٨ ح ٤٧٩٠ وأقره الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى المراء ٦/ ٩٨ ، ٩٩ ح ١٩٩٣

(٤) أخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى معانى الأخلاق ٦ / ١٢٦ ج ٢٠١٨

ومن تفسير الرسول ﷺ للخلق ما رواه مسلم عند النواس بن سمعان رضى الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال البر حسن الخلق ، والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس (١) .

ولقد دعا الرسول ﷺ الناس جميعاً إلى مكارم الأخلاق منها ما يقيم بناء الأمة ، ولم يكن لديه سلطة قانونية يؤدب بها المخالفين ولا ثروة طائلة يغرى بها طلاب الدنيا .

إذاً فما الذى جعل الناس يهرعون إلى دعوته ، ويضربون أروع الأمثلة فى البذل والتضحية من أجله ؟ إنها الطاقات الوجدانية التى ألهبت عواطفهم الجياشة بالإيمان اقتداء واهتداء بالنور الذى اتبعوه ، وإنه الرصيد الجم من مكارم الأخلاق التى انبعثت من حياة الرسول ﷺ فشبتت بها عقيدتهم ، وترعرع بها سلوكهم فشب من أعماقهم وازع الضمير يقرع قلوبهم بين الفينة والفينة ، إن علام الغيوب مطلع يعلم السر وأخفى وأن الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... » (٢) .

وهل هناك سلطة قانونية كانت أشد وأقوى من ذلك عندهم ؟ وهل هناك ثروة طائلة أروع من الرصيد الهائل الذى فرش حياتهم بالأمن والسعادة وانتزع سلطان المتجبرين ورد بطش المتسلطين ؟

لقد رأوا ذلك كله رأى العين فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فى السر

(١) أخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تفسير البر والإثم ٧ / ٦٣٣ ح ٦٣٩٦ .

(٢) سورة المجادلة من الآية ٧ .

لقد رأوا كله رأى العين فصدقوا ما عاهدوا والعلانية وأرهفوا إحساسهم إليه ، وكونوا بقلوبهم المؤتلفة أعظم مجتمع إسلامى متوحد كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً .

هذا وإن العقيدة والخلق لصنوان لا ينفصلان ، فالعقيدة دون الخلق لا تؤتى ثمارها التى من أجلها كانت التشريعات السماوية ، والخلق دون العقيدة هباء منثوراً لا أصل له ولا قيمة .

وتتبين لنا القيمة الأخلاقية كصمام لحياة المسلم ومعتصم لا يتخلى عنه من صدقت عقيدته حتى فى أحرج الأوقات .

ونظرة سريعة إلى المسلمين الأوائل إذا أصاب أحدهم نزغ من الشيطان فاقترف الخطيئة تحرك وازع الأخلاق من نفسه وأحس بفداحة جرمه فيلتمس الطهارة منه ، ويتقدم لنيل جزائه عليه فى الدنيا قبل الآخرة .

روى الإمام مسلم بسنده عن بريدة رضى الله عنه قال : جاء ماعز ابن مالك إلى النبى ﷺ فقال : يارسول الله طهرنى ، فقال : ويحك فاستغفر الله وتب إليه قال : فرجع غير بعيد ثم جاء فقال يارسول الله طهرنى فقال رسول الله ﷺ : ويحك ارجع فاستغفر الله وتب إليه ، قال . فرجع غير بعيد ثم جاء فقال : يارسول الله طهرنى ، فقال النبى ﷺ مثل ذلك حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ فيم أطهرك ؟ فقال : من الزنا ، فسأل رسول الله ﷺ أبه جنون ؟ فأخبر أنه ليس بمجنون . فقال : أشرب خمراً ؟ فقام رجل فاستنكهه فلم يجد منه ريح خمر قال : فقال رسول الله ﷺ : أزنيت ؟ فقال : نعم . فأمر به فرجم ، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس فسلم ثم جلس فقال : استغفروا لماعز بن مالك . قال : فقال رسول الله ﷺ : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو سعتهم » (١) .

(١) مسلم فى صحيحه ٣/١٣٢٤ كتاب الحدود من اعترف على نفسه بالزنا

وهكذا نرى كيف سمت أرواحهم وصفت فحافظوا على أحكام الشريعة ونفذوا حدودها مهما كلفهم ذلك، لأن فى تنفيذ الحدود التى شرعها الله ترسيخ للفضائل الخلقية فى المجتمع الإسلامى، ولفظ الرذيلة وأهلها، وهذا الأمر لم، نستطع أية فلسفة أن تحققه.

وفى هذا الجانب حذر الإسلام من الخلاعة وعمل على مقاومتها وتقبيح حال من يجاهر بالرذيلة، أو يتحدث عنها.

عن أبى هريرة رضى عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل أمتى معا فى إلا المجاهرين، وإن من المجانة أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: يافلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره الله، ويصبح يكشف ستر الله عنه»[1].

وفى هذا الحديث يكشف لنا الرسول صلوات الله وسلامه عليه عن موطن من أشد مواطن العيب فى الإنسان، وهو الاستخفاف بالذنب والإتيان به دون مبالاة، بل تستبد بالمذنب الوقاحة إلى حد يضاعف به الذنب، حيث لا يكتفى بارتكابه بل يتحدث به ويجاهر.

فما أشد حاجة المجتمع الإسلامى اليوم إلى من يأخذ على أيدى العابثين بالدين والذين يأتون المنكر على مرأى من الناس، وفى كل مكان على صورة التهاون حيناً، وعلى صورة المدنية الفاجرة البغيضة حيناً آخر، فى الرقص المختلط، إلى احتساء الخمر... إلى غير ذلك من المنكرات[2].

(١) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب ستر المؤمن على نفسه ٢٢/٢٨٠ ح ٦٠٦٩ فتح البارى وأخرجه مسلم فى كتاب الزهد باب النهى عن هتك الإنسان ستر نفسه ٨/٤٤١ ح ٧٣٤١ شرح النووى

(٢) الأخلاق فى ضوء القرآن والسنة ـ دكتور أحمد عمر هاشم ص ٥٥

ولم يكتف الإسلام بتشديد النكير على المجاهرين، بل ألزم الفرد والمجتمع بمقاومة كل انحراف وشذوذ خلقى، وهذا ما لا نجده أبداً فى الفلسفات والمذاهب الوضعية.

قال تعالى: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون»[1].

فتخصيص طائفة من المؤمنين تقوم على زجر العاصى أمر من الدين وقد عنى بين خلفاء المسلمين ووضعوا له نظاماً عرف فى الفكر الإسلامى بنظام الحسبة، وبهذا تتحقق الأخلاق الاجتماعية فى الفكر الإسلامى.

من أجل ذلك يهتم الإسلام اهتماماً بالغاً بالأخلاق الاجتماعية باعتبارها وقاية ووجاء، تعصم النفوس عن شهواتها، وتردها عن غيها، وتقف بها عند حظها ونصيبها وما قسمه الله لها، فنرى الإسلام يأخذ بيمين الإنسان يقوده من عماية الجهالة إلى هداية التمييز بين الفضيلة والرذيلة والحلال والحرام والخير والشر.

ومن مظاهر الاهتمام بالأخلاق الاجتماعية، تحريم الإسلام السخرية بالناس بسبب ما يكون عليه بعضهم من ميزة، مادية أو معنوية، كما ينهاهم عن لمز بعضهم البعض احتقاراً واستصغاراً فقال تعالى: «يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون»[2].

وتمشياً مع سياسة الإسلام فى الاهتمام بالأخلاق الاجتماعية نهى عن

(١) سورة آل عمران آية ١٠٤

(٢) سورة الحجرات آية ١١

الظن والتجسس والغيبة بسبب ما تؤدى إليه من البغض والكراهية والقطيعة أعدى أعداء التآلف والتآخى والتعارف بين البشر فقال تعالى: « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعد الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم »(١) .

وجاءت الأحاديث تترى وتتابع تنهى المسلمين عن التخلق بمثل تلك الأخلاق حفظاً لجلال الأخوة وقدسيتها ، وحرصاً على النظام الاجتماعى من التصدع والانهيار .

قال رسول الله ﷺ : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا »(٢) .

وهذا إن دل فإنما يدل على شدة محافظة الإسلام على كيان الفرد داخل مجتمعه فيرفض التهم والأحكام المبنية على الظن .

وتتسع دائرة الأخلاق الاجتماعية حتى تقيم سداً منيعاً قوياً يحمى الفرد من أخيه الفرد داخل بنية المجتمع الإسلامى ، وهو الأمر الذى لم نجده لدى أية مدرسة من المدارس الخلقية .

---

(١) سورة الحجرات آية ١٢

(٢) أخرجه البخارى فى كتاب الأدب باب « يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن » ٢٣١/٢٢ وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة والآداب باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها ٦٤٤/٧ ح ٦٤١٦

ونظر أبى عمر يوما إلى البيت أو إلى الكعبة فقال : ما أعظمك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك »(١) .

ويعرض الرسول عليه الصلاة والسلام المشاهد الكثيرة عظة وعبرة لكل من تسول له نفسه النيل من أخيه المسلم بل وأخيه الإنسان ، منها قوله ﷺ : « من أكل برجل مسلم أكله فإن الله يطعمه مثلها فى جهنم ، ومن كسا ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله فى جهنم ، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله تعالى يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة »(٢) .

وتمشيا مع سياسة الإسلام الإيجابية وإيقاظه للقيم الكامنة فى النفس الإنسانية لم يكتف بمجرد الدعوة إلى الامتناع عن التعرض للمسلمين فيما يؤذيه ويضرهم فى أعراضهم وأموالهم ، بل حرضهم على حماية المسلمين والانتصار لهم ، واعتبر كل من يخذل مسلماً فى موطن يجب فيه الانتصار له مستحقاً لسخط الله وغضبه(٣) .

قال رسول الله ﷺ « ما من امرىء يخذل امرءاً مسلماً فى موضع تنتهك فيه حرمته وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله تعالى فى موطن يحب فيها نصرته ، وما من امرىء ينصرا مسلماً فى موضع ينتقص فيه من

---

(١) أخرجه الترمذى فى كتاب البر والصلة باب ما جاء فى تعظيم المؤمن ١٤٥/٦ ح ٢٠٣٢١

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب فى الغيبة ١٣ / ١٥٤ ح ٤٨٧١

(٣) الأخلاق وقواعد السلوك فى الإسلام ص ١٤٧ — ١٤٨

عرضه وينتهك فيه من حرمته إلا نصره الله عز وجل فى موطن يحب نصرته »[١] .

ولا تكتفى الأخلاق الإسلامية بإصلاح الفرد والمجتمع فحسب بل نراها تخترق الفرد المسلم من أجل إصلاح سريرته كى لا تنفذ أمراض الإنسان الداخلية إلى المجتمع فتصيبه بهذا الداء العضال ألا وهو الحسد الذى أمر الله رسوله ﷺ بالاستعاذة من شره فقال « ومن شر حاسد إذا حسد »[٢] .

وكفى بالحسد مقتاً أن يكون سبب أول جريمة على الأرض يعنى حسد ابن آدم لأخيه فقتله . قال تعالى : « فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين »[٣] .

هذا بعض من كثير مما ورد فى نصوص الكتاب والسنة حثاً للناس على الالتزام بالخلق المحمود ، ونهياً وزجراً لهم عن الإقدام على المرذول من الأخلاق .

وانعكست هذه النصوص على النفوس من مفكرى المسلمين ومتصوفتهم حتى صار التصوف مرادفاً للخلق عند بعضهم ، فقد عرف أبو محمد الجريرى التصوف بأنه الخروج من كل خلق دنى والدخول فى كل خلق سنى[٤] ، كما انتشر الإسلام فى كثير من البلاد الأفريقية والبلاد

(١) أخرجه أبو داود فى كتاب الأدب باب من رد عن مسلم غيبة ١٣/١٦٥ ح ٤٨٧٤

(٢) سورة الفلق آية ٥

(٣) سورة المائدة آية ٣٠

(٤) نقلا عن كتاب نشأة التصوف الإسلامى — الأستاذ الدكتور محمد ضياء الدين الكردى ص ٥٥

الآسيوية بخلق التجار المسلمين الذين كانوا فى الغالب ينتمون إلى الطرق الصوفية ، فكان سلوكهم النبيل أبلغ وأشد تأثيراً من خطب الأئمة والوعاظ .

وما ذلك إلا لأنهم ساروا على نهج الكتاب والسنة منفذين لأوامرهما مرضاة لله عز وجل ، وأملا وطمعاً فى الثواب الأخروى ، وخوفاً من غضب الله وعذابه ، وهذا ما لا يتوفر فى المذاهب الأخلاقية التى هى من صنع الإنسان .

فالحلال والحرام فى الشريعة الإسلامية أمران هامان لما يحققانه من أثر قوى على النفس الإنسانية المؤمنة ، فالحرام إشارة حمراء مخيفة للنفوس المؤمنة الباحثة عن إرضاء الله عز وجل ، والحلال إشارة مرور خضراء تبشر بالطريق الآمن الموصل لله عز وجل ، وهذان الأمران — أعنى الحلال والحرام — من أقوى الضوابط الأخلاقية فى الشريعة الإسلامية ، وهما اللذان يسيران مع الإنسان المؤمن فى كل عصر حتى عصرنا الحاضر الذى يبدو العلم فيه مسيطرا على كافة جوانب الإنسان من عمليات نقل الأعضاء أو بيعها أو التبرع بها ، أو زرعها إلى التناسخ مروراً بتشريح جثث الموتى وبيعها والتعامل معها بحس متبلد باسم العلم ومصلحة الإنسان واستحداث أجهزة التجسس والتصنت التى تخترق بيوت الناس وحجرات نومهم بحجة الحفاظ على الأمن العام إلى غير ذلك مما نسمعه ونشاهده فى الأجهزة المرئية من فن الدعاية والإعلام واستخدام المرأة لإثارة الغرائز بحجة التحضر والمدنية إلى غير ذلك من الأساليب اللا أخلاقية .

فالحلال والحرام والحدود التى شرعها الله فى قانونه السماوى أمور تدفع المسلمين من عوامهم وخواصهم إلى أن يسألوا مرات ومرات علماء الدين المتخصصين عن كل ما يخطر ببالهم من الأمور التى أسلفناها

خوفاً من الله عز وجل، أو حتى خوفاً من اتهامهم بالمروق والخروج من الدين، هذا الدين الذى جعل الله فيه بقاءه من ذاته، وهذه أعظم ميزة فى القانون الخلقى الموجود فى الشريعة الإسلامية.

وصدق الله العظيم إذ يقول: «اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا . . »[1].

---

(١) المائدة من الآية ٣